

النخبة الدينية ودورها في تعليم المرأة الجزائرية والحفاظ على مقومات الأمة: 1954-1900.

أ. زهير بن علي
جامعة سطيف 2

ملخص: لعبت النخبة الدينية الإسلامية بالجزائر دورا لا ينكر في تربية وتعليم المرأة الجزائرية، وإخراجها من حالة الجهل والتخلف التي سطها عليها الاحتلال بسياسته الرامية إلى طمس مقومات الأمة الجزائرية، ومسح هويتها العربية الإسلامية. وقد تولى رواد الإصلاح منذ مطلع القرن العشرين الميلادي؛ الدعوة إلى وجوب تربية وتعليم البنت الجزائرية، وفتح أبواب المدارس أمامها، مثلها مثل الذكر. وكان في مقدمة النخبة الإصلاحية المطالبة بذلك نذكر: محمد بن الخوجة، عبد القادر المجاوي، محمد بن أبي شنب وعمر بن قدور... وغيرهم.

وبمجيء الجيل الثاني من المصلحين وانبعثت الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، على يد ثلة من العلماء، يتقدمهم الشيخ عبد الحميد بن باديس، والإمام محمد البشير الإبراهيمي، والشيخ الطيب العقبي والشيخ الشهيد العربي التبسي... عرف مشروع إصلاح المرأة الجزائرية دفعة قوية بتأسيس 'جمعية التربية والتعليم' بقسنطينة عام 1930، ثم ميلاد 'جمعية العلماء المسلمين الجزائريين' في 5 ماي 1931 م. وقد تجسدت هذه الحركة العلمية التعليمية تمثلت في إنشاء المدارس الإصلاحية، وفتح المجال أمام الإناث للتعلم مجانا، والتخلف من الجهل والأمية، وقد بلغت ذروتها في عهد رئاسة الإبراهيمي لجمعية العلماء، لاسيما بعد الحرب العالمية الثانية إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية المباركة.

في هذه المداخلة؛ سنلقي الضوء على دور النخبة الإصلاحية في تربية وتعليم المرأة الجزائرية، مع إطلالة على مدارس الجمعية بمنطقة غليزان وضواحيها، وفي الحفاظ على هويتها وكيانها ودينها ولغتها. وعليه سنتطرق إلى ما يلي:

تقديم:

- 1- رواد الإصلاح والدعوة إلى تربية وتعليم المرأة الجزائرية: 1900-1930.
- 2- منهج العلماء وفلسفتهم في إصلاح المرأة المسلمة: 1913-1931
- 3- تعليم البنات ضمن المشروع الإصلاحي لجمعية العلماء: 1930-1954

مقدمة:

يرى بعض المفكرين المحدثين، أن الحركة الإصلاحية الإسلامية الحديثة في العالم العربي والإسلامي، جاءت كرد فعل على الغرب، لما رأى المسلمون ما حل بهم من نكبات، بسبب تقدم أوروبا بعلومها وأنظمتها الحديثة، فظهرت نظريتان متعارضتان: التقليدية والتحديثية (التجديدية)، أما أصحاب النظرية الأولى، فرأوا أن الخطر في تقليد أوروبا؛ لأنه يؤدي إلى ضياع الدين والدولة... أما الحداثيين، فإنهم مثلوا حركة علمية متكيفة مع الواقع الجديد، وحاولوا من خلالها التوفيق بين التراث العربي الإسلامي وبين إيجابيات الحضارة الغربية ومفاهيمها الجديدة وعلى رأسها فكرة الحداثة.

إن الحركة الإصلاحية الإسلامية الحديثة والمعاصرة في الجزائر؛ برزت في شكل حركة إحياء وبعث، تقوم على التطور الذاتي لتجاوز التأخر الاقتصادي والتفكك الاجتماعي؛ الكفيل بوقف المد الاستعماري ومحاصرته وتصفيته. وهذا ما جعل الحركة الإصلاحية -بغض النظر عن مضامينها الدينية- بمثابة مشروع مجتمع، يقوم على إحياء القيم الحضارية، ويهدف إلى تجديد النظرة إلى الحياة، والحفاظ على كيان ومقومات الأمة.

وقد اعتبر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: "أن لفظ 'حركة' في العرف العصري العام لا يطلق إلا على كل مبدأ تعتنقه جماعة وتنساق لنصرتة ونشره والدعاية والعمل له عن عقيدة، وتبيّ له نظاما محددا، وخطّة مرسومة وغاية مقصودة". وكثيرا ما كانت الحركات الدينية هي الرحم الذي ولدت منه الحركات السياسية، فالحركة البروتستانتية التي ظهرت في أوروبا في القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين، كانت دينية الطابع، وانصب نشاطها على تنوير العقول الأوروبية، التي كانت تتقبل تقبلا أعمى الفكر الكهنوتي المكبّل للعقول.

وبناء على ما سبق؛ فلن لفظ 'الإصلاحي أو المصلح'، يمكن أن يضم كل دعاة تغيير الأوضاع القائمة، بغض النظر عن أيديولوجياتهم الفكرية وطبيعة ثقافتهم وتكوينهم، وكذا توجهاتهم السياسية؛ ففي حالة الجزائر إبان الفترة الاستعمارية، يمكن أن يشمل المصطلح، أوائل المصلحين والشبان ثم السياسيين من أمثال الأمير خالد ثم العلماء على غرار ابن باديس والإبراهيمي والعقبي والأمين العمودي. ولو أن المصلحين الذين يصدر عن جهة دينية، تختص حركتهم الإصلاحية باسم 'الحركة الإصلاحية الإسلامية' انطلاقاً من طابعها الديني وطبيعة تكوين رجالها الدينية (الإسلامية).

لقد لعبت النخبة الإصلاحية بالجزائر دوراً لا ينكر في تربية وتعليم المرأة الجزائرية، وإخراجها من حالة الجهل والتخلف التي سطّرها عليها الاحتلال بسياسته الرامية إلى طمس مقومات الأمة الجزائرية، ومسح هويتها العربية الإسلامية. وقد تولى رواد الإصلاح منذ مطلع القرن العشرين الميلادي؛ الدعوة إلى وجوب تربية وتعليم البنات الجزائرية، وفتح أبواب المدارس أمامها، مثلها مثل الذكر. وكان في مقدمة النخبة الإصلاحية المطالبة بذلك نذكر: محمد بن الخوجة، عبد القادر المجاوي، محمد بن أبي شنب وعمر بن قدور... وغيرهم.

وبمجيء الجيل الثاني من المصلحين وانبعثت الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، على يد ثلة من العلماء، يتقدمهم الشيخ عبد الحميد بن باديس، والإمام محمد البشير الإبراهيمي، والشيخ الطيب العقبي والشيخ الشهيد العربي التبسي... عرف مشروع إصلاح المرأة الجزائرية دفعة قوية بتأسيس 'جمعية التربية والتعليم' بقسنطينة عام 1930، ثم ميلاد 'جمعية العلماء المسلمين الجزائريين' في 5 ماي 1931 م. وقد تجسدت هذه الحركة العلمية التعليمية تمثلت في إنشاء المدارس الإصلاحية، وفتح المجال أمام الإناث للتعلم مجاناً، والتخلص من الجهل والأمية، وقد بلغت ذروتها في عهد رئاسة الإبراهيمي لجمعية العلماء، ولاسيما بعد الحرب العالمية الثانية إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية المباركة في نوفمبر 1954 م.

1- رواد الإصلاح والدعوة إلى تربية وتعليم المرأة الجزائرية:

إن قضية المرأة قد تلّخو طرحها في الجزائر، إذا ما قورنت بنظيرتها في مصر أو في تونس، وقد تناولتها أقلام النخبة المثقفة بالثقافة الفرنسية والعربية، حيث رأوا

أن تطور المراة وحريةها يكمن في تعليمها، وتفرق دعاة إصلاح أوضاعها؛ بين أنصار الحداثة أو دعاة تغيير كل ما هو قديم، وبين المتشبهين بالأصالة ودعاة المحافظة على كل ما تم توارثه عن الماضي. وبذلك دخل إصلاح أوضاع المراة الجزائرية في حلبة الصراع بين الحداثيين والمحافظين وأصبح لكل واحد من الفريقين مدرسته وأدبياته، وتحول النقاش الفكري أحيانا إلى مواقف ساخنة.

ومن القضايا الملفتة للانتباه أن كثير من الصحف التي عرفت الجزائر بداية القرن العشرين، كانت تصدر باللغة العربية، كما أن المواضيع التي عالجتها هذه الصحافة كانت شبه محظورة على الجزائريين قبل ذلك التاريخ؛ فمن القضايا التي تناولتها الصحافة موضوع التجنس والإدماج وقضايا المراة والحقوق المهضومة، وقضايا الطفولة المشردة وأثر الجهل على مستقبل الشعوب....

وكانت أول صحيفة عربية وطنية هي جريدة 'الحق' التي أنشأها بعناية في سنة 1894م، ثم صدرت 'كوكب افريقية' للشيخ محمود كحول سنة 1907، وتلتها صحيفة 'الجزائر' للشيخ عمر راسم في عام 1908م، وظهرت بوهان جريدة 'الحق الوهراني' في سنة 1912م، وفي سنة 1913م، أنشأ الشيخ عمر بن قدور جريدته 'الفاروق' وكانت أول جريدة جزائرية منتظمة الصدور، حيث عمرت إلى سنة 1915م، وصدر منها عشرات الأعداد، أثرت تأثيرا واسعا وعميقا في الجزائر، كما أصدر عمر راسم جريدته الثانية 'ذو الفقار' في سنة 1913م أيضا، في شكل مجلة مصورة، وابتدأ الأمير خالد نضاله السياسي والاجتماعي بجريدة 'الإقدام' التي ظهرت في سنة 1920م.

كما صدرت العديد من الصحف باللغة الفرنسية، وكان أصحابها من الجزائريين المخلصين لقضايا وطنهم، غير أنها كانت سياسية محضة، تطالب بالحقوق السياسية، غايتها تحقيق المساواة في الحقوق والإدماج، وباستثناء 'الدفاع' للأمين العمودي و'الإسلام' للصادق دندان، فإن البقية لم تعتن بالإصلاح الديني والاجتماعي.

لما أبرز رواد الإصلاح الجزائريين، الذين اهتموا بقضايا المراة المسلمة، ودعوا إلى تعليمها، ومن أبرزهم:

1-1- عبد القادر المجاوي وتربية المرأة: ولد بتلمسان في الغرب الجزائري سنة 1848م، لذلك يعرف أيضا بـ 'عبد القادر التلمساني'. ويعتبر الشيخ عبد القادر المجاوي من العلماء الموسوعيين في عصره؛ بكثرة تحصيله ووزارة علمه وتنوع معارفه ومشاركته في كل فن من فنون العصر. وقد عاش معلما وأستاذا، تخرج على يده عدد هام من بناء النهضة العلمية والأدبية في الجزائر، كان أشهرهم الشيخ حمدان لونيبي، الأستاذ الأمل للشيخ عبد الحميد ابن باديس، وقد ترك كما معتبرا من المؤلفات، بلغ ثلاثة عشر كتابا. كان آخرها كتاب 'اللمع على نظم البدع' وهو شرح على 'منظومة البدع' أو 'المنصفة في البدع' لتلميذه ابن الموهوب، طبع سنة 1912م بمطبعة فونتانة بالجزائر، وقد تناول هذا الكتاب موضوع البدع والخرافات والكبائر التي كانت منتشرة في المجتمع القسنطيني على الخصوص والجزائري على العموم، والتي تسببت في شل حركته الفكرية والعلمية، وعطت سيره ومواقفه للحضارة.

و المجاوي من دعاة الإصلاح الأوائل في الجزائر، يرجع فساد الأخلاق بين الناشئة إلى جهل المرأة، وإبعادها عن مجال التربية وحرمانها من التعليم، وقد تحدث عن طرق التعليم في عصره بشيء من اللقد، فهو يرفض التعليم العربي القديم الذي أصبح لا يفي بمتطلبات العصر، ويرفض الطرق التقليدية ويدعو إلى الإصلاح والتجديد، ومن هنا يحق لنا أن نخرج المجاوي من جماعة المحافظين، كما اصطلاح البعض على جماعته؛ إذ كانت المحافظة تعني الجمود على آثار السلف.

لقد تأثر المجاوي كثيرا لحال المرأة المسلمة، التي كانت تعاني الجهل والامية حالها في ذلك كحال المجتمع الجزائري في ظل الاستعمار الفرنسي، هذا الحال زاده سوءا، خضوع المرأة للعادات البالية والأعراف الاجتماعية الفاسدة، الناتجة عن الفهم الخاطي للشرع الإسلامي، وإغفال للناس للدور التربوي الذي تلعبه المرأة في تهذيب الأبناء إلى جانب الرجل، وهذا ما جعل المجاوي مدركا للور المنوط بالمرأة، إذا تلقت الاهتمام اللازم لإصلاح شؤونها بدءا من احترام الرجل لها، وإعطائها المكانة اللائقة بها في الأسر والمجتمع، وصولا إلى حقها في التعليم المفيد؛ لأن تربية الأطفال على يد أمهات جاهلات أو متعلمات تعليما ناقصا، يسبب الضرر للأولاد ثم للمجتمع، إذ يقول: " وما كثر الفساد في لمة إلا بعدم تربية الأولاد، فإننا نرى الأولاد مهملين يتعلمون الفساد ويرتكبون المعاصي حق صارت ديار آبائهم خرابا".

يحنر عبد القادر المجاوي من تعليم المرأة تعليماً ناقصاً غير مفيد، ففي هذه الحالة س تكون الجاهلة خير منها؛ لأن ذلك سيؤدي إلى تكورها وعنادها وعدم وعيها بأهمية العلم الذي تحمله، فتسيء تربية أبنائها وتعجز عن تدبير شؤون بيتها، فيقول: "...فالمرأة التي تظلي باقية على سذاجتها الأولى فلم تتلق شيئاً من مبادئ العلوم والفنون، ولم تمارس القراءة والكتابة، قد يتيسر أن نمنعها بأنها جاهلة، ثم نوصيها بلزوم الرجوع في تربية طفلها إلى رأي من هو أعرف منها بشؤون التربية (...). لما التي تعلمت تعليماً ناقصاً، ورأى أولياؤها ألا يعطوها من العلوم سوى قراءة القرآن، وكتابة أبجد هوز، وجناب الأكرمين حاسبين لأن ذلك القدر كافٍ، وأنه أليق بها وأحوط في سلامة دينها وآدابها، فلن هذه المرأة تصبح بهذا للعلم للناقص ذات عجب وعناد ونجاح، فلا تعود تصغي لمشورة من هو أعلم منها، ولا تقف في إفساد تربية ابنها وتدبير منزلها عند حد، فتسيء الظن بزوجها، وتغل يده عن استثمار مالها وتدبير منزلها على غير ما تقتضيه قواعد الاقتصاد وأصول الصحة ووسائل التطهير وللظافة، وتحاول تربية أولادها فتخل بقوانين التربية، وتفتات (كذا) على المربي المفيد اعتداداً بكفاءتها، ولأن معرفتها لتلك القراءة للناقصة جعلتها أهلاً لكل شيء، وعائلة بكل شيء، وخبيرة بكل شيء أيضاً..."

كما يبين محاسن المرأة المتعلمة: "لما المرأة التي عرف أولياؤها كيف يعلمونها، وكيف يجعلونها تستفيد من الذي تلقته، فإنها إذا تزوجت، فيا سعد زوجها بها، وإذا رزقت أولاداً، فيا سعادة أولادها من أجلها. تعلمت القرآن والكتابة لكن لم تتعلمها لذاتها؛ بل لتتوصل بهما إلى درس أعلى، وتحصيل فوائد أعلى..." فالمرأة إذا أحسن الأولياء تعليمها، فسوف تستفيد مما تعلمته في إسعاد زوجها وأولادها، فتريحهم وتغرس في نفوسهم الفضيلة والتربية الصحيحة، وتتعلّى ذلك إلى الاهتمام - من خلال ما تعلمته - بصحتهم ونظافة أبدانهم ونقاء أرواحهم. كما تساهم في حث أولادها على طلب العلم وتحبيه إلى قلوبهم، وتمهده لهم بللصائح، وتحذرهم من رفقاء السوء، وتلفت نظر زوجها إلى ضرورة تحبيب العبادات إلى قلوبهم، وخاصة الصلاة، منذ الصغر؛ كي يتعودوا على الطباع الحميدة ويشيوا عليها.

والحق أن دعوة المجاوي إلى تعليم المرأة كان لها أثر كبير؛ حيث بدأت الصحافة الجزائرية تهتم بالموضوع، فضلاً عن تأثيرات المشرق العربي، فمن الذين تأثروا

بأفكار المجاوي، الشيخ عمر بن قدور الجزائري، الذي ألح على تعليم الأطفال دون الحاجة إلى التفريق بين الذكور والإناث.

1-2- محمد بن مصطفى بن الخوجة وقضية المرأة: لم يكن المجاوي الوحيد من بين النخب الذي اهتم بالشأن الجزائري، فهناك العديد من معاصريه الذين أولوا لقضية تعليم (الأهالي) أهمية قصوى، وكانت هذه المسألة حاضرة في مقالاتهم وكتاباتهم ولقاءاتهم باستمرار مع رجال الفكر والثقافة من الفرنسيين، ولوأنهم لم يطرحوا قضية 'تعليم المرأة' بشكل منفرد؛ ربما باعتبار أن ظروف ذلك العصر لم تكن تسمح بذلك، وهو من النخب الجزائرية عالية الثقافة، حصل على الشهادة في اللغة العربية (Diplôme D'Arabe) في سنة 1894م، وهو عضو بالمجمع العلمي العربي بدمشق، كما يحمل دكتوراه في الآداب من جامعة الجزائر، وأحد أساتذتها الأفاضل وهو أول عالم جزائري يجلس على كرسي الجامعة، ترك لنا عدة كتابات في التربية والتعليم، ومؤلفات في الأدب واللغة والتاريخ والتراجم والسير، كما كان يكتب الشعر. "قابن أبي شنب من أهم الشخصيات المثقفة التي خدمت الثقافة العربية وعلومها واللغات الأجنبية المساعدة لإثرائها في مرحلة اليقظة الجزائرية منذ نهاية القرن التاسع عشر والعقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين"، وعند وفاته يوم 05 فيفري 1929م، قال عنه عبد الحميد بن باديس: "لما عرفناه فقدناه".

ظهر اهتمام ابن الخوجة بقضية المرأة بالتزامن مع ظهور كتاب 'تحرير المرأة' لقاسم أمين بمصر، وكذلك تبعا لظهور كتب بعض المستشرقين من مثل كتاب يوجين دوماس (Eugene Dumas) المرأة العربية، والذي كتبه صاحبه في أربعينات القرن التاسع عشر، ولم ينشر إلا في سنة 1912م، وكتاب أرنست مرسية (Ernest mercier) تحت عنوان: 'المرأة المسلمة في الشمال الإفريقي' وذلك سنة 1895م، وكذلك كتاب 'الحياة المدنية الإسلامية في مدينة الجزائر ووضع المرأة طبقا للقرآن والسنة وأعمال المرأة المسلمة' لصاحبه محمد بن أبي شنب سنة 1907م. وربما يأتي كتابي ابن خوجة: 'الاكتراث في حقوق الإناث' ومن بعده كتاب 'اللباب في أحكام الزينة والاحتجاب' في سياق النقاش حول موضوع المرأة وإصلاح شأنها في العلم العربي والإسلامي والجزائر.

في كتابه الموسوم بعنوان: 'الاكتراث في حقوق الإناث'، تطرق محمد بن الخوجة إلى المسائل الفقهية والاجتماعية للمرأة المسلمة، مع أن جل اهتمامه انصب على الجانب الشرعي بحكم تكوينه الديني، إلا أن 'مصطفى الكمال' طرق الكثير من المشاكل اليومية في حياة المرأة، ضمن السياق التاريخي والظروف التي كانت تعيش في ظلها النساء الجزائريات، أما كتابه الثاني، فقد أفرده للأحكام الفقهية المتعلقة بالزينة ولمسائل اللباس والاحتجاب عند الجنسين، كما يظهر ذلك من عنوانه، ومع ذلك فقد ضمنه إشارات إلى قضايا متعلقة بالمرأة وحريتها وخروجها إلى العمل لمساعدة زوجها. وقد اعتبر من شروط اختيار الزوجة ابتداء وهي ذاتها أسبابا للألفة وطيب العيش بين الزوجين-كما قال- وبقي مقاصدها الثمانية: الدين، الخلق الحسن، الجمال، خفة المهر، الولادة، البكارة، النسب الطيب، والبعد عن الزواج من الأقارب. وأهمها "كونها دينة صالحة فهو الأصل في الخصال، وبه ينبغي أن يقع الاعتناء والاهتمام بشأنه، فإنها إن كانت ضعيفة الدين، بحيث لا تهتم في صيانة نفسها عن الخسائس، وفرجها عن المحارم، أزرت بزوجه وفضحته، وسودت وجهه بين الناس بهتك عرضه، وشوش قلبه وتنص بذلك عيشه، فلا يتقى في أحواله قط، فإن سلك معها سبيل الحماية الدينية والأنفة الإيمانية والغيرة الإنسانية، لم يزل معها بلاء لا يبيد، ومحنة تزيد، وإن سلك سبيل التساهل والتخالف، كان متهاويا بدينه وعرضه، ومنسوباً إلى النياثة".

ثم تطرق إلى مشكلة سوء أخلاق المرأة المتزوجة: الذي انجرت أساساً عن الجهل: ". ..أن جل نساءنا يتناولن على رجالهن، ويكلهن ما لا يطاق من الإنفاق والتبذير، ومنهن من لا تحي زوجها ولا ترحب به ولا تبش (من البشاشة أي الابتسامة) في وجهه، بل تعرض عنه ولا تجيب ندائه ولا تمتثل أمره. وفيهن من تشتمه وتدعو عليه مشافهة، حتى اضطرب بعضهم إلى تأديبهن بالضرب زيادة على بذل جهده من اللعن والسب. وسبب ذلك كله هو جهلن وجهل أزواجهن بعلم الدين، المرادف للفضلة التملن عند غيرنا"....

كما عقد الكاتب مقارنة بين المرأة العربية ونظيرتها في الغرب، بخصوص حسن معاملة الزوج، معتبراً أن تعلمهن هو علة ذلك: "وبعكس ما ذكرناه نساء الإفرنج، فلن غالين لا ينهجن مع بعولتهن ذلك النهج، وما ذاك لتغذيتهم بلبان المعارف، للتالد (القديم) منها والطرف (المتأخر أو الحديث)، ولا غرو، فالعلم أكمل مذهب،

وأحل مؤهب، وهو مقوم نفوس الأمم، ومعدل الطاع والشيم. وأنى لنسائنا مجاراتهن في ميدان، أو الموازنة معهن بميزان، وقد بلغن في الجهل الغاية القصيا(كذا)، وركبن في هضم حقوق أزواجهن متن عميا. ولهذا كان أغلب المتأهلين منا في عناء كبير، وبلاء خطير، وبهما عظم الشقاق، وكثر الطلاق، والأمر كله لله، ولا قوة إلا بالله.

1-3-عمر بن قدور الجزائري: يعتبر عمر بن قدور، من رواد مدرسة الإصلاح الإسلامي المتأثرين فكريا بالشيخ محمد عبده، ومجلة 'المنار' للسيد رشيد رضا، فقد أراد أن يقلده في محاربة البدع والخرافات بالجزائر عن طريق نشر الوعي والإصلاح الدينيين بواسطة الصحافة، ولعل ذلك ما دفعه إلى إنشاء أهم صحيفة عربية إسلامية في الجزائر، مثلت الانطلاقة الحقيقية في الاتجاه الوطني هي جريدة اختار لها اسم 'الفاروق'، وهي أول جريدة وطنية ترتقي إلى مصاف الجرائد العربية المعتبرة، اهتمت بقضايا المسلمين الجزائريين، وحللت واقعهم المر، وكرت بصورة خاصة على أحداث تركيا العثمانية ناصحة ومحلة لأوضاع المسلمين السائدة في ذلك الوقت. وقد جاء في افتتاحيتها أنها " جريدة إسلامية بكل معاني الكلمة، تبحث في شؤون المسلمين مع مراعاة الاعتدال الذي اختارته مشربا لها".

ربط بن قدور تخلف الأمة بجهل المرأة، وهو نتيجة طبيعية وحتمية لأجيال من الأبناء يتيمون ويكبرون في حجر أمهات جاهلات، فقال: "لو قبض الله للمسلمين أن يدركوا حقائق الأسباب التي منعتهم من للهوض إلى تنمية حياتهم، وحفظ حزمهم القومي من أدواء الاضمحلال؛ لعثروا بجهل المرأة يقرض عروة الجامعة كالجرذ، ويقطع ظهر للمة كالسيف، وإنه جالب الخزي والوبال والمحبط لأعمال الرجال"، وبين خطورة دور المرأة في المجتمع: "إن النساء يلعبن بجهلهن دورا مهما في دس السم في الدسم، وبأيديهن مفاتيح أقفال جيوب الرجال ومداركهم، وقد استأنس الرجال بما يكنن به، وظفوا ذلك لب الدين ومختار اليقين، وحسن ما يأتي به الاجتماع للناس أجمعين. إفا بين الجدران أخطار مهلكة فاق شرها شرما بين الضلوع، وعظم ويلها على الجل والمجموع، واحتوى كيدها على منع المباح وتناول الممنوع".

2- منهج المصلحين وفلسفتهم في إصلاح المرأة المسلمة:

برزت مع نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في الجزائر؛ نخبة من العلماء المصلحين الذين مثلوا باكورة النهضة والإصلاح، منهم من كان تعليمه عربيا خالصا وثقافته دينية صرفة، ومنهم من التحق بالمدرسة الفرنسية منذ الصبا، فكانت ثقافته مزدوجة وتعليمه مزدوجا (عربي- فرنسي)، كما تعلم في الكتاب قبل دخول المدرسة الفرنسية الابتدائية والثانوية، ومنهم من رحل إلى فرنسا ودرس بجامعاتها ثم رجع إلى الجزائر، وكان من دعاة الإصلاح الإسلامي.

من هؤلاء كما أسلفنا الحديث عنه؛ الشيخ محمد بن رحال، عبد القادر المجاوي، عمر راسم، الصادق دندن، عمر بن قدور، والأمير خالد والأمين العمودي... أما خريجو الجامعات الفرنسية من أبناء الجزائر فمنهم: الدكتور محمد بن العربي، محمد بن أبي شنب، والصيدلي فرحات عباس... وغيرهم. وأشهر من تناول مسائل المرأة المسلمة محمد بن الخوجة (مصطفى الكمال) صاحب أول تأليف حول المرأة المسلمة بعنوان: 'الاكتراث في حقوق الإناث'. حيث رأى المصلحون الأوائل، أن التعليم الفرنسي مفيد (عكس ما كان يعتقد غالبية الجزائريين؛ بأنه شر خالص لا نفع فيه) بشرط أن يبي الأولاد تربية دينية صحيحة، ويأخذون حظهم من العلوم الدينية واللغة العربية. كما دعوا إلى ضرورة تربية وتعليم المرأة الجزائرية لرفع الضيم عنها وتحسين أوضاعها.

والحق أن الحديث بين العلماء حول مسألة 'تعليم المرأة المسلمة' كان مبكرا، من خلال ما كانت تنشره الصحف الباديسية، من ذلك مقالا للسيد أبو صالح عبد السلام، كانت قد نشرته جريدة 'صدي تلمسان' ونا على سؤال بعض مكاتبيها الأوروبيين. وكانت قضية تعليم المرأة من أهم القضايا التي طرحت على بساط البحث في نوادي العلماء وحلقات دروسهم. ورغم أنهم لم يصلوا إلى مساواتها بالرجل؛ فإنهم دعوا إلى تحريرها من ربة الجهل ووطأة العبودية، وقد انقسم الرأي بينهم بخصوص تعليمها إلى اتجاهين اتجاها مؤيد وآخر معارض لتعليم المرأة.

لم يول ابن باديس اهتماما كبيرا لهذا الجدل بخصوص حدود تعليم المرأة، عدا تأكيده على قضية الفصل بين الجنسين، كما كان يفعل في حلقاته التعليمية والدعوية، ولم يتوقف طموح رائد الإصلاح الجزائري عند التفكير في الطريقة المثلى

لتربية وتعليم الفتاة المسلمة والرقى بها أخلاقيا ودينيا واجتماعيا فحسب، بل بادر إلى تأسيس 'جمعية التربية والتعليم الإسلامية' بقسنطينة، وفتح المدارس الحرة بكامل القطر الجزائري، و فسخ المجال أمام البنت للتعلم مجانا، سواء أكانت غنية أم فقيرة.

هذا الأمر الذي أكدّه بعض معاصري الرجل؛ بأنه لؤلؤ من فكر في تعليم المرأة ودعا إلى ذلك صراحة، ومن بين هؤلاء محمد الصالح ابن عتيق؛ وهو أحد تلاميذ الإمام، الذي كتب قائلا: "من جرأة الإمام ابن باديس -رحمه الله- تعليم للنساء، وهي المنطقة التي كانت محرمة تحريما مغلظا على من يحاول أن يصلح من شأنها أو يخفف من وطأتها.. ولني لأذكر مرة؛ إذ وجدته جالسا بأحد البكاكين، فاستدعاني إلى الجلوس، وما إن استقري المجلس حتى وجه إلي هذا السؤال: ما قولك في فتح دروس بالجامع الأخضر للنساء؟". مع وجوب الإشارة إلى أن ابن باديس كان يفضي المرأة الجاهلة التي تلد للامة أبناء يعرفون وطنهم؛ عن تلك التي المتعلمة تعليما أجنبيا (لسان فرنسي) سطحيا، يؤدي بها إلى الاستخفاف بعروبيتها وإسلامها وعاداتها وتقاليدها، والمتقفة بالثقافة الأجنبية التي تلد اولادا يتنكرون لهذا الوطن وعاداته وقيمه.

وإذا كان تعليم البنات في المدارس الرسمية الفرنسية بالجزائر، قد عرف بعض التطور؛ إذ وصل عددهن إلى 8330 تلميذة سنة 1936م، بعدما لم يكن يتجاوز 358 تلميذة سنة 1882م، فإن حظ البنات الجزائريات من التعليم الرسمي في مرحلة الثانوية إلاالزور القليل؛ فحسب إحصائيات جريدة 'النجاح' القسنطينية؛ فقد بلغ عددهن 99 تلميذة سنة 1936م، ولا وجود لأي بنت في الجامعة إلى حد هذا التاريخ.

لقد شعر ابن باديس بهذا الخلل البين والتمييز الواضح بين الفتاة الجزائرية ونظيرتها الفرنسية، وحاول -رحمه الله- تداركه، عندما بعث برسالة سنة 1939م إلى مديرة 'جمعية دوحة الأدب' بالعاصمة السورية دمشق، وهي إحدى حفيدات الأمير عبد القادر الجزائري، وتدعى السيدة عادلة بهم الجزائري؛ يطلب منها أن تستقبل في مؤسستها التعليمية عددا من الطالبات الجزائريات من خريجات 'جمعية التربية والتعليم' التي كان يرأسها؛ لما علم ما تقوم به هذه

الجمعية من إعداد البنات وتكوينهن وتعليمهن، وقد قرأ ما تنشره حولها مجلة 'الرابطة العربية' الذائعة الصيت والمنتشرة في الجزائر آنذاك، وفيما يلي نص رسالة ابن باديس:

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وآله

قسطنطينة في 9 جمادى الأولى 1357 هـ سنة 1937

حضرة السيدة الجليلة رئيسة جمعية دوحة الأدب المحترمة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد، فاسمحي لي يا سيدتي أن أتقدم إلى حضرتك بهذا الكتاب (=الرسالة) من غير تشرف سابق بمعرفتكم، غير ما تربطنا به الروابط العديدة المتينة التي تجمع بين القطرين الشقيقين: الشام والجزائر.

يسرك سيدتي أن تعرفي بأن بالجزائر نهضة أدبية تهييية تستمد حياتها من العروبة والإسلام غايتها رفع مستوى الشعب العقلي والأخلاقي. ومن مؤسسات هذه النهضة جمعية التربية والتعليم بقسطنطينة، ولما علمت إدارتها بجمعيتكم المباركة بما نشرته عنها بمجلة الرابطة العربية، رغبت أن ترسل بعض البنات لتعليمهن في مدرسة الجمعية، فهي ترغب من حضرتكم أن تعرفوها بالسبل إلى ذلك.

تفضلي بقبول تحيات الجمعية وإخلاصها والسلام من رئيس الجمعية عبد الحميد بن باديس.

العنوان بالحرف: Benbadis13A. Lambert ; Constantine Algérie

وافقت رئيسة الجمعية المذكورة؛ وهي سيدة عادلة بهم الجزائري، إحدى حفيدات الأمير عبد القادر على طلب ابن باديس، ورحبت كثيرا بهذه المبادرة، فاضل بأولياء الطالبات اللاتي اختارهن لتشكيل وفد البعثة الطلابية إلى دمشق، وهن عشرة: سليمة بن البرج، سليمة حافظ، نعناعة ونيسي، أختها حليلة ونيسي، صويلح فاطمة، فلة بو البارود، الرامضة بو عبد الله، فاطمة رودسلي، عائشة ديمق، أختها ياسمينة ديمق. وكان من المفروض أن تسافر الفتيات إلى دمشق في شهر أكتوبر 1939 م، لكن اندلاع الحرب العالمية الثانية في شهر سبتمبر، ثم وفاة

ابن باديس في 16 أفريل 1940 م، عطى هذا المشروع، وتبخت آمال البنات وأولياؤهن وأساتذتهن.

إذن؛ فالمنهج الإصلاحى وفلسفته فى تربية وتعليم البنت الجزائرية؛ تقوم إذن على الارتباط الوثيق بين التربية بالتعليم، والتربية فى نظر ابن باديس ورفاقه، هى ما يحدثه النشاط التعليمى من تغيير إيجابى فى شخصية المتعلم (ذكرا وأنثى)، فى فكره ولسانه ووجدانه وسلوكه، بحيث يجعله يتلقى تربية شاملة تعزز ارتباطه بدينه ولغته، وتعق شعوره بالانتماء إلى الوطن والتاريخ، وتجعله يحافظ على شخصيته، وهذا المعنى محدد فى القانون الأساسى الذى وضعه ابن باديس لتأسيس جمعية التربية والتعليم؛ إذ أورد فيه: "بنى القانون الأساسى من الوجهة التربوية على تربية أبناء المسلمين وبناتهم بالمحافظة على دينهم ولغتهم وشخصيتهم، ومن الوجهة التعليمية على تثقيف أفكارهم بالعلم باللسانين- العربى والفرنسى- وتعليمهم الصنائع".

والحق أن رائد الإصلاح الإسلامى فى الجزائر، شرع فى التخطيط والإعداد للتأسيس لتعليم عال لتلميذات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يفوق ما حققته الجمعية إلى تلك اللحظة، بتأسيسها المدارس الحرة كما ذكرنا، ثم المعاهد التى كانت تعتبر بمثابة مدارس للتعليم الثانوى". لكن الظروف ووفاة الرجل فى 16 أفريل سنة 1940م، حالت دون تحقيق هذا الطموح.

لما فى منظور الإمام الإبراهيمي: "فالتربية هى غاية، والتعليم فهو الوسيلة لذلك، وا لغاية تسبق الوسيلة عند بناء الخط، ولكن لا بد منهما معا؛ لذلك كانت نظريته إلى التعليم تحدد ما ينبغى أن يتجه إليه الجهد المدرسى، فالاهتمام بنوع الأثر الذى تحدثه المعلومات المقدمة للتلاميذ أهم وأولى من كثرة المعلومات التى تحشى بها أذهانهم"، ونجد هذا واضحا فى الخط التعليمى الذى اتفق مع ابن باديس، يقول الإبراهيمي فى هذا الصدد: "كانت الطريقة التى اتفقت عليها أنا وابن باديس فى المدينة المنورة فى تربية النشء هى أن لا نتوسع له فى العلم، وإما نريه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل". وبخصوص التعليم الذى يريده العلماء للأمة، والمدرسة التى يتطلعون إليها، يقول الإبراهيمي: "الأمة تريد تعليما عربيا يساير العصر فى قوته ونظامه، لا تعليما يحمل جراثيم الفناء وتحمله نذر الموت".

والذي يهمناه منذ سنة 1938م، صار للتعليم العربي الإسلامي منهجا موازيا ومنافسا لمنهج التعليم الرسمي الفرنسي، وصار التلاميذ يفرون من المدرسة الفرنسية ويفضلون الالتحاق بمدارس جمعية العلماء، خاصة الفتيات، حيث التعليم العربي الموجه إليهن مجانا ويتم وفق ضوابط الإسلامية، وهو ما لا تتوفر عليه المدرسة الفرنسية؛ مما حدا بالأولياء إلى السماح لبناتهن بالالتحاق بمدارس الجمعية، بعد أن كانوا في معظمهم مقاطعين للمدرسة.

هذه المستجدات أثارت قلق الإدارة الاستعمارية في الجزائر، والتي لم تجد بين يديها من القوانين العامة ما تتخذه سلاحا ضد النشاط الإصلاحي، فالتجأت إلى القرارات الإدارية، للتضييق على التعليم العربي الحرومطاردة رجاله من معلمي جمعية العلماء الذين سيقوا إلى القضاء وسجنوا، وإلجام صحافة الجمعية، واعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر. ثم سارعت إلى استصدار قانون 8 مارس 1938م، الذي جاء خصيصا لمحاربة التعليم العربي الحر في الجزائر، بعد أن أصبحت التقارير المحزنة من خطر الدور الإصلاحي لمدارس الجمعية ومعلميها على مستقبل فرنسا في الجزائر.

إن تعليم المرأة في المدرسة الباديسية، خالف كل أساليب التعليم المعاصرة له في الجزائر؛ حيث مزج في منهجه بين التعاليم الإسلامية والمبادئ القومية والوطنية وعلوم العصر، فهو يشترط أن يكون هذا التعليم في دائرة المثل الدينية والقومية والأخلاق والحشمة، بحيث "لا تجعل منها نصف رجل ولا نصف امرأة"؛ لأجل ذلك لم يهتم العلماء بتعليم اللغة الفرنسية، بل انتدبوا معلمات فرنسيات لهذا الغرض، ولم يفرض العلماء على المعلمات بمدارس الجمعية هندام معق، لا بل إن غالبية كن غير متحجبات؛ سواء معلمات اللغة الفرنسية أو اللغة العربية وباقي المواد المقررة، هذا الأمر أكتته السيدة زهور ونيسي في مذكراتها، عند حديثها عن معلمتها الأولى بقسنطينة، إذ كتبت: "لما التي علمتني الحروف الهجائية، ودرّبت لساني على للطق والكلام بلغة عربية سليمة، ومرنت أصابعي على الكتابة بخط جميل، فهي السيدة حورية أو 'لاله حورية' كما كنا ندعوها بزهر الطفولة. كانت 'لاله حورية' لا تختلف أبدا عن المعلمات بالمدارس الفرنسية، ذات هندام عصري أنيق، ونظارات ذهبية، وحذاء ذي كعب عال، وشعر قصير مسرح حسب موضحة ذلك الوقت".

3-تعليم البنات ضمن المشروع الإصلاحي لجمعية العلماء:

قبل تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ تأسست جمعية في قسنطينة أسندت إليها مهمة تربية وتعليم البنين والبنات هي 'جمعية التربية والتعليم الإسلامية' التي أنشأها ابن باديس سنة 1930 م، وتولى رئاستها بنفسه وأسند النيابة إلى السيد إسماعيل بن نعمون، بينما كان حسين بن شريف أمين المال.

1-3 ابن باديس والتخطيط لتعليم البنات: أولى الإمام ابن باديس العناية البالغة لتعليم الفتاة المسلمة، وهذا ما قاله الرجل عن تلك جمعية: "ومن دواعي الإعجاب بهذه الجمعية أنها صرفت عنايتها لتعليم الفتاة الجزائرية تعليما دينيا صحيحا، يقق وما تصبو إليه من اقتران ذلك التعليم بالحشمة والفضيلة والعفة والصيانة، ومما يدل على أن باكورة أعمال هذه الجمعية الحازمة، مما جعلنا نعتقد تسرب روحها الفياضة إلى البلدان الأخرى؛ أن المدرسة التي فتحتها هذه الجمعية منذ أشهر قليلة تضم إلى أعضائها نحو ثمانين فتاة، ومثل هذا الإقبال يدل على أن الجزائر متأهبة إلى نفذ تلك الأسمال من العرف الذي يوجب على الفتاة حرمانها من المعرفة والثقافة العلمية والدينية الصحيحة، ومن كل ما يؤهلها لأن تكون جديرة بالحياة"....

لقد كان ابن باديس من دعاة تعليم البنات المتحمسين، لكن بشرط أن يكون هذا التعليم في إطار دائرة المثل الدينية والمبادئ القومية والأخلاق والحشمة، وبذلك فهو صاحب الرأي والمنهج الوسطي في هذه المسألة، وقد بذل جهده في سبيل توفير تعليم البنات الجزائريات المسلمات، فالرجل لم يكن من دعاة حرمان الفتاة من التعليم، كما لم يكن متساهلا بخصوص ظروف ومنهج تعليمها. فالعلماء الجزائريين لم يختلفوا في قضية تعليم المرأة في حد ذاتها، ولكنهم اختلفوا في حدود هذا التعليم، وهل من الأفيد تعلم المرأة الكتابة؟

وتأسست أول مدرسة خاصة بالبنات في الجزائر العاصمة؛ وهي مدرسة 'شريعة الأعمال' بالقصبة سنة 1934. ولم يخف الشيخ الطيب العقبي سروره بمشاركة المرأة في احتفال الجمعية الخيرية الإسلامية سنة 1935 (تلميذات مدرسة الشبيبة)، حيث يذكر الفتى الزواوي في تقرير نشرته الشهاب: «... كما أنه أبدى (العقبي) ابتهاجاته وإحساساته (كذا)، نحو مشاركة المرأة في الاحتفال الخيري

الإسلامي؛ إذ شاهدن هذا المظهر السار، فكن إلى جانب الرجال في فعل الخير، هكذا كانت النساء في الإسلام»....

2-3 ازدهار تعليم البنات في عهد الإبراهيمي: منذ نزل الشيخ الإبراهيمي بتلمسان سنة 1933 م، شرع بث التعليم العربي والفكر الإصلاحي وبعث الحركة العلمية هناك، وقد عرفت رئاسته لجمعية العلماء؛ اهتماما أكبر بالمرأة، وتوسعا ملحوظا في تعليم البنات الجزائرية، فقد حرص على افتتاح مدرسة لتعليم البنات بجوار 'دار الحديث'، هي مدرسة 'عائشة أم المؤمنين' التي افتتحت يوم الأحد 11 ماي 1952 م، بأربعة أقسام ضم كل قسم 45 فتاة، وأقيم حفل بالمناسبة حضرته حوالي 800 امرأة، قلمت خلاله التلمسانيات حلهن لتسديد الديون المترتبة على هذه المدرسة، فجمع مبلغ 750 ألف فرنك.

لمدرسة دار الحديث بتلمسان دور بارز في تعليم النساء، فقد كان عددهن في ازدياد مضطرد، كما قام المشرفين عليها بجلب المعلمات للتدريس بها، ولم يشترطوا عليهن ارتداء الحجاب، لحاجة المدرسة إليهن؛ كون بعضهن من الفرنسيات، وقد أثر الإبراهيمي تحقيق غايته القصوى، والمتمثلة في القضاء على الجهل في تلمسان، على الانتباه كثيرا إلى مظهر المعلمات، يمكن أن نسجل هنا شهادة السيدة زهور كاهية الثاني، وهي إحدى تلميذات دار الحديث التي تقول: "في ذلك الوقت كنت أتابع الدروس بمدرسة الحديث، كان الأساتذة يجتهدون ليعلمونا قراءة وكتابة اللغة العربية، والأشعار المختارة كانت تتمحور دائما حول حب الوطن، الأناشيد التي كنا نتعلمها هي 'من جبالنا'، 'موطني'، 'شعب الجزائر'، 'حيو شمال إفريقيا'... وهذه الأنشودة مهداة لشهداء 8 ماي 1945".

وازدهر تعليم الفتاة المسلمة؛ لا سيما في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية (1946-1952)، حيث وصل عدد الإناث في مدارس الجمعية إلى 5696 بنت سنة 1950؛ ليقفز الرقم إلى 13 ألف بنت سنة 1953 م، وقد جادل الإبراهيمي جدلا كبيرا عن حق الفتاة في التعلم؛ بل اعتبره واجبا عليها. وكان الإمام يخطط لإنشاء دار للمعلمات ومعهد بنات، على غرار معهد ابن باديس للنكور، وقد ساء الاستعمار وأتباعه أن تقبل البنات الجزائرية على مدارس جمعية العلماء، فأشاع عن طريق أذنابه في الجزائر، أن مدارس الجمعية 'عرضت الأعراس للتمزيق'. وقد

تصلى محمد البشير إبراهيمي بقلمه لتلك الحملة وكشف هدفها: "إن الاستعمار متشائم بتعليمها -الجمعية- للبنات المسلمة؛ لأن نتيجته ستكون بنت صالحة، تصبح غدا زوجة صالحة، وبعد غدٍ لُما صالحة وهاله أن تعمر البيوت بالصالحات، فيلن جيلًا صالحًا، صحيح العقائد، متين الإيمان، قويم الأخلاق طموحًا في الحياة، فتطول به غصته ثم تنتهي به قصته (...). لأن الاستعمار بعيد للظن، عارفا بما للمرأة في أمتها من الأثر؛ فهو- لذلك- حركهم وما زال يحركهم لإثارة هذا الغبار الأسود في وجه جمعية العلماء لزعزعة ثقة الأمة بالجمعية في خصوص تعليم البنات".

وفي غليزان على سبيل المثال؛ التحقت الفتيات الجزائريات بالمدارس الحرة منذ عام 1943، وذكرت 'البصائر' سنة 1948 أسماء بعضهن: بدرة جلول عبو، خديجة بن يحيى، ربيعة بريكسي، خيرة بن يحيى، خديجة قاضي، أمينة بن ساعو، فاضلة بن حجي... ومنهن من واصلت دراستها إلى السنة النهائية، وعينت معلمتان بالمدرسة نفسها.

وكذلك الحال بالنسبة للعنصر البشري المشرف على تأطير البنات والبنين، فقد بلغ عدد معلمي مدارس الجمعية عام 1951م، وفقا لما أورده 'البصائر': 275 معلما ومعلمة، ولا يدخل ضمن هذا العدد؛ المعلمون المسجونون في سجون الاحتلال الفرنسي بسبب نشاطهم التربوي والوطني. ويعطي أحمد توفيق المدني رقما كبيرا لعدد المعلمين، فهو يجعلهم 900 معلم. لُما التلاميذ؛ فكان عددهم خلال هذه المرحلة في تصاعدٍ دائم، وقد بلغ في العام نفسه: 36286 تلميذا وتلميذة، منهم 16286 تلميذا يتلقون تعليمهم في النهار، ويكتفون بالتعليم العربي فقط، ولا يتروّدون على المدارس الفرنسية الرسمية، ويوزعون عدديا بين ذكور وإناث كما يلي: 10590 ذكور، 5696 إناث، في حين يذكر فرنسيس جونسون (Francis Johnson) عددا يتراوح بين 45 ألف و50 ألف تلميذا، ويعطي 'مارل (Merle)' الرقم 22000، ويرفض ما تقول به جمعية العلماء بأن لديها 40000 تلميذا وتلميذة.

خاتمة:

ولئن كان رواد الإصلاح الأوائل، قد اكتفوا بالدعوة إلى فتح المجال أمام البنت الجزائرية للتعليم، وتحسين ثقافتها ونمط حياتها، ورأوا ضرورة تعلمها الفرنسية بعد أن تكون قد حصنت نفسها بتعلم لغتها العربية وأحكام عقيدتها الإسلامية؛ فإن 'جمعية العلماء' ورجالها استطاعوا أن يحولوا القول إلى فعل، فكانوا 'علماء عاملون' بحق، وظهرت ثمار إصلاحهم المرأة على أرض الواقع.

والحق أن التعليم العربي الإصلاحي الذي قادته 'جمعية العلماء المسلمين الجزائريين'، تمكن من أن ينشئ جيلا جزائريا جديدا، يحمل ثقافة مختلفة تماما عن ثقافة الجهل والمسخ التي حاول الاحتلال الفرنسي ترسيخها في الجزائر طيلة قرن من الزمن، واستطاع المصلحون أن يغطوا مختلف مجالات التربية والإصلاح، وأن يملأوا الفراغ الذي فرضه الاستعمار وساهم في تكريس، وأن يؤسسوا لمنهج تربوي تعليمي متكامل، استهدف البنين والبنات على حد السواء؛ جمع بين التربية على الأخلاق وتعليم البنت الجزائرية المسلمة أصول الدين، وبناء شخصية المرأة في جوانبها الإيمانية والخلقية والروحية والعلمية، واستطاع العلماء أيضا وبث الوعي روح التحرر وقيم المواطنة في نفسها، وتلقينها 'العلوم الآلية' الدنيوية، فضلا عن أصول إدارة شؤون بيوتهن وإعدادهن ليكون زوجات صالحات مستقبلا.

وتتجلى الحفاظ على مقومات الأمة الجزائرية من خلال تجربة 'جمعية العلماء المسلمين الجزائريين' التاريخية؛ بقدرة العلماء على كسر 'الطابوهات' التي حرمت على المرأة العلم والثقافة، وحققوا المزاوجة في التعليم لصالح الجنسين (ذكور وإناث) من منطلق قاعدة مفادها: أن أدوار المرأة تكمل أدوار الرجل، ومن منطلق أن المرأة هي نصف المجتمع بل هي المجتمع كله؛ لأنها الأم والأخت والزوجة والبنت التي لا تستقيم الحياة من دون تربيتها التربية الصحيحة، وتعليمها العلم النافع المفيد، لتخرج لنا جيلا واعيا بمسؤولياته، مدركا لتحديات الحياة.

إن الملفت لنظر الباحث في هذا الموضوع؛ أن جمعية العلماء لم تكن تمانع في أن يتعلم أبناء الجزائر باللغة الفرنسية؛ بل كانت تعتبرها من العلوم "الآلية" التي يحتاجها المواطن في حياته، ولذلك رأينا رجال الجمعية أنفسهم، يرسلون أبناءهم إلى المدارس الفرنسية، وهكذا لم تأت الحرب العالمية الثانية، حتى كانت هذه

'الازدواجية الجديدة' هي طابع التعليم العام، نقول الجديدة لأن القديمة كانت مقتصرة على المدارس الفرنسية، التي كانت تعلم اللغتين، ولكن بالمنهج الفرنسي، مثلما هو الحال مع المدارس الشرعية الرسمية الثلاث.

وبنجاح المشروع الإصلاحي الذي أشرف على تجسيده نخبة الإصلاح؛ بدأت المرأة الجزائرية تنفض عنها أسمال الماضي، وتلعب دورها الاجتماعي والحضاري في خدمة أمتها ووطنها. ولقد لخص ابن باديس نظرة العلماء إلى تعليم المرأة ودورها الاجتماعي بقوله: "إن الأمة كالطائرة لا تطير إلا بجناحين، وجناحاها الرجل والمرأة. فالأمة التي تخلص الذكر بالتعليم تريد أن تطير بجناح واحد، فهي واقعة لا محالة".

ببليوغرافيا الدراسة:

- ¹ - أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج.1: 1929-1940، المرجع السابق، ص 181.
- ¹ - سعيد شريفي: "البعد السياسي لنشاط الحركة الإصلاحية الباديسية"، مجلة المصادر، ع.13، 2006، ص 126.
- ¹ - عبد الهادي بوطالب: حقوق الأسرة وتحرير المرأة، دار الثقافة: مؤسسة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، (د ت)، ص 95.
- ¹ - يجب أن ننوه هنا بالجوال العام الذي كان سائدا في جزائر بداية القرن العشرين، مع بعض التسامح من طرف الإدارة الاستعمارية، أو كما أطلق عليها البعض 'مرحلة التهدة' التي عرفت فيها الولاية العامة في الجزائر، علي يد بعض الحكام العاميين؛ أمثال لويس تيرمان (1881-1891) وجون كاميون (1891-1897) وشارل جونار (1903-1913). أنظر: أحمد مريوش: الحركة الطلابية ودورها في القضية الوطنية وثورة التحرير 1954، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2005-2006، ص 28.
- ¹ - أحمد مريوش: "مساهمة الحركة الإصلاحية في بناء المجتمع الجزائري المعاصر 1900-1952"، مجلة الحكمة، ع.1، أبريل 2009، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، ص 108.
- ¹ - محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج.2، المطبعة العربية، الجزائر، 1981، ص ص 7-8.
- ¹ - المرجع نفسه، ص 12.

¹ - Ounassa Tengour-Siari: Medjaoui Abdelkader (vers 1840...) parcours, les hommes et l'histoire, n° 13-14, octobre 1990, p.179.

في الحقيقة، هناك خلاف حول مسقط رأس المجاوي؛ فريق يقول أنه ولد بتلمسان ومنهم تلميذه محمود كحول، وفريق ثاني يرى أنه ولد بطنجة في المغرب الأقصى. أنظر التعريف

- بالشيخ المجاوي لعبد الرزاق دحمون ضمن تحقيق الأخير لكتاب: عبد القادر المجاوي: تحفة الأخيار فيما يتعلق بالكسب والاختيار، (سلسلة الشيخ عبد القادر المجاوي حياته وأعماله)، دار زمورة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 13-15.
- ¹ - رايح تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس: فلسفته وجهوده في التربية والتعليم 1900-1940، ط.3، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974، ص 106.
- ¹ - عبد القادر المجاوي: تحفة الأخيار فيما يتعلق بالكسب والاختيار، (سلسلة الشيخ عبد القادر المجاوي حياته وأعماله)، دار زمورة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 71، 27.
- ¹ - عبد الكريم بوصفصاف: الفكر... ج.1، المرجع السابق، ص 137-138.
- ¹ - عبد القادر المجاوي، المصدر السابق، ص 115.
- ¹ - عبد القادر المجاوي: الملح في النظم على البدع، المصدر السابق، ص 116.
- ¹ - المصدر نفسه، ص 117.
- ¹ - دريادي حميدة: الشيخ عبد القادر المجاوي ودوره في نهضة الجزائر الحديثة: 1848-1914، مذكرة ماجستير، المدرسة العليا للأساتذة، الجزائر، 2012/2011، ص 133.
- ¹ - المرجع نفسه.
- ¹ - ترجمة وافية للرجل وأهم آثاره وبحوثه في كتاب: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: محمد بن أبي شنب: حياته وأثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 181.
- ¹ - أنظر: عبد الحميد ابن باديس: "الأستاذ ابن شنب رحمه الله تعالى"، الشهاب، ج.2، شوال 1347هـ.
- ¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.6 1830-1954، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص 186.
- ¹ - مصطفى بن الخوجة: الاكتراث في حقوق الإناث، تعليق. زهير قوتال، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007، ص 28-29.
- ¹ - ابن الخوجة: الاكتراث...، المصدر السابق، ص 80.
- ¹ - المصدر نفسه، ص 81.
- ¹ - محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، ط.2، ألفا ديزاين، الجزائر، 2006، ص 33.
- ¹ - عمر بن قدور: "بجمل المرأة المسلمة وأحلامها الفاسدة نال الشعب من كوارث البدع ما ناله"، الفاوق، ع.38، (28 نوفمبر 1913). نتقم بالشكر الجزيل للأستاذ مولود قرين من جامعة الجزائر2، الذي أمدنا بملف إلكتروني، يحتوي الأعداد المتوفرة على مستوى الأرشيف الوطني بالجزائر العاصمة من جريدة 'الفاوق'.
- ¹ - محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج.2، المطبعة العربية، الجزائر، 1981، ص 4-7.

- ¹- عبد العزيز الزناقي: "أيستحب تعليم المرأة المسلمة وترشيدها"، الشهاب، ع. 104، 1927.
- ¹- عبد الكريم بوصفصاف: "موقف العلماء المسلمين الجزائريين من تعليم المرأة الجزائرية إبان الربع الثاني من القرن العشرين"، مجلة سرتا، ع. 1، جمادى الثانية 1399هـ/ماي 1979م، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، ص ص 60-61.
- ¹- محمد الهادي الحسني: "المعجزة الأخلاقية"، جريدة الشروق اليومي، 13 مارس 2009، على الرابط: <http://www.echoroukonline.com/ara/articles/33890.html> تاريخ الاطلاع: 2013-04-12، سا 10:12.
- ¹- محمد بي الدين سالم: ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، دار الشروق، مصر، 1999، ص 108.
- ¹- محمد يعيش: كبرى اهتمامات جريدة النجاح القسنطينية 1919-1956، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، 2001-2002.
- ¹- زهور ونيسي: عبر الزهور والأشواك: مسار امرأة، دار القصة للنشر، الجزائر، 2012، ص 102.
- ¹- يحي بوعزيز: المرأة الجزائرية وحركة الإصلاح النسوية العربية، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص ص 30-31.
- ¹- عمار الطالبي: آثار ابن باديس، المرجع السابق، ص 103. أنظر أيضا: عبد القادر فضيل: "الفكر التربوي الباديسي الحاضر الغائب"، مجلة الوعي، ع. 1، رجب-شعبان 1431/جويلية 2010، دار الوعي، الجزائر، ص 65.
- ¹- كان في صدارة النخبة الجزائرية التي قنمت دراسة تطبيقية شاملة حول التعليم العالي في الجزائر: محمد بن رجال، من خلال مذكرة قلمها أمام جول فيري، رئيس مجلس الشيوخ الفرنسي سنة 1892م، أدرج ضمنها حلول ومقترحات مست بالدرجة الأولى التعليم في المرحلة الثانوية. أنظر: صبرينة الواعر: محمد بن رجال ودوره السياسي والثقافي (1856-1928)، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2002-2003، ص 93.
- ¹- عبد القادر فضيل: "التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي"، مجلة الوعي، ع. 2، 1431هـ/نوفمبر 2010، دار الوعي، الجزائر، ص ص 42-43.
- ¹- محمد خير الدين: مذكرات، ج. 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ت)، ص 137.
- ¹- عبد الكريم بوصفصاف: الفكر، ج. 2، المرجع السابق، ص ص 44-45.
- ¹- كلمة 'لالة' لقب شرقي يطلق على السيدات ذوات الشأن، وهو لفظ أمازيغي متداول على نطاق واسع في منطقة شمال إفريقيا، وغير مستعمل في بلاد المشرق العربي. أنظر: Edmond Douté: Les Marabouts: notes sur l'Islam en la berbère musulmane, extrait de la revue de l'histoire des religions éditées en 1900 par Ernest Leroux à paris, Editions Alger-livres, Alger, 2008, p31.
- ¹- زهور ونيسي، المصدر السابق، ص 111.

- ¹ - عبد الحميد ابن باديس: "جمعية التربية والتعليم الإسلامية"، الشهاب، ج 2، السنة السابعة، شوال 1349هـ/ مارس 1931.
- ¹ - المصدر نفسه.
- ¹ - عقاف زقور: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ونشأة وتطور الإصلاح بمدينة الجزائر 1931-1940، رسالة ماجستير في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر، 2007/2006، ص ص 164-165.
- ¹ - عبد الرحمان بن بوزيان: دار الحديث ودورها في الحركة الإصلاحية بتلمسان 1937-1956، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، 2013، ص 179.
- ¹ - جيلالي صاري: بروز النخبة المثقفة الجزائرية (1850-1950)، تر. عمر المعراجي، منشورات ANEP، الجزائر، 2007، ص 332.
- ¹ - أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص ص 21-22.
- ¹ - محمد مقلح: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة غليزان 1931-1957م، دار قرطبة، الجزائر، 2011، ص ص 113-114.
- ¹ - البصائر، ع 172-173، بتاريخ 15 أكتوبر 1951.
- ¹ - التقرير السنوي الذي ألقاه الإبراهيمي أمام الهيئة العامة لجمعية العلماء في شهر أكتوبر عام 1951م. أنظر: أحمد طالب الإبراهيمي: آثار...، ج 2، المصدر السابق، ص 433.
- ¹ - أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 213-215.